الباب الاول

الفصل الاول

الخديوى اسماعيل

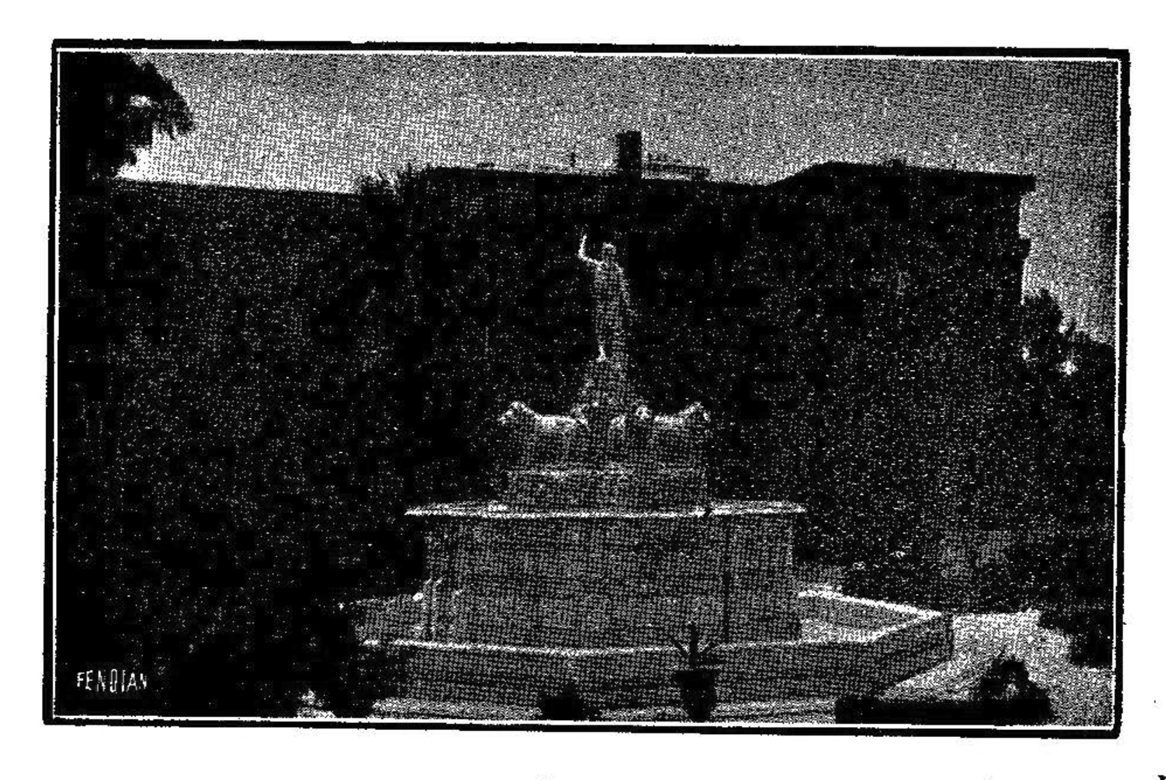
مطامع اسماعيل . اسرافه وبذخه . اصلاحاته الادارية . الأزمة المالية . لجنة التحقيق . مصرع اسماعيل المفتش . النظارة المختلطة . مظاهرة الضباط . سقوط النظارة المختلطة . قانون التصفية . اللائحة الوطنية . عزل اسماعيل

لم أدرك من عهد الخديوى اسماعيل سوى المرحلة الأخيرة ، فقيدت عن أطوارها وحوادثها مذكرات مستفيضة . ولكن من بواعث الأسف أن فقدت طائفة من هذه المذكرات أثناء الحرب الكبرى ، حين فتش منزلى وأنا مبعد فى أوربا ، كما فقد بعضها فى ظروف أخرى . ولذا فانى أكتفى فى سرد حوادث هذه الفترة بما وعته الذاكرة منها ، مسترشداً فى ضبطها وربطها بما بقى مما قيدت عنها .



الخديوى اسماعيـــل

مطامع اسماعيل . كان اسماعيل — مذ تولى ولاية مصر — يطمح الى أن يجعلها قطعة من أوربا ، تقدماً ومدنية وعلماً . كما كان يطمح الى الاستقلال بمصر عن تركيا . وقد أخـــذ يعمل لتحقيق ذلك بما وسع . غير أنه فيما بذله لترقية البلاد كان أكثر عناية بالمظاهر الخلابة منه بعوامل التقدم الحقيقية . فدارت جهوده بالاخص حول انشاء القصور والحدائق والمتنزهات وتجميل مدينة القاهرة ، باقتباس بعض الأنظمة والمنشئات الباريسية



واجهة قصر الجزيرة

فشيد قصر الجزيرة على مثال قصر الحمراء فى الأندلس وأنشأ بحديقته (سلاملك) بديعاً ، وهو المعروف الآن بكازينو الجزيرة

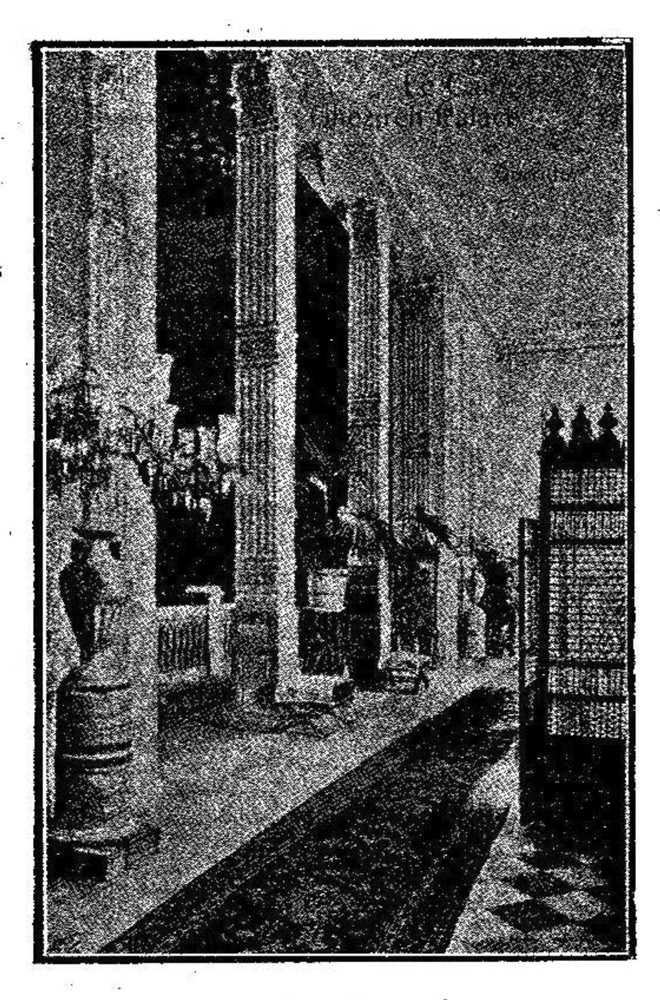
وكان يوجد فى حديقة هذا القصر أيضاً كثير من الحيوانات الكاسرة وغيرها .

ثم قصر الجيزة — ومكانه الآن حديقة الحيوانات .

وقصر الاسماعيلية القريب من قنطرة قصر النيل — ولم يبق منه الآن الا السور الخارجى لأن القصر نفسه قد هدم

وهذا فضلا عن قصر عابدين الرسمى الذى وسع فيه اسماعيل ، وأضاف اليه الجزء القبلى من السراى الذى كان يسكنه اسماعيل باشا صديق (المفتش)

وشيد كذلك قصوراً أخرى فى الجيزة لأولاده ، وسراى القبة لولى عهده، وقصراً فى مدينة الاسماعيلية أقام فيها الحفلات الفاخرة بمناسبة فتح قناة السويس



المدخل العربى للقصر

وكان يشاع أن أحد الفلكيين نصحه باستمرار البناء مدة توليته حتى لا ينتزع العرش منه .

وكذلك عنى بشق الشوارع ومد أنابيب الغاز والمياه ، حتى يستغنى الأهالى عن الاستسقاء من الخليج أو النيل مباشرة ، بواسطة قربة السقاء كما يرى فى صورة السقايين بالصحيفة التالية

وكان للاسكندرية حظ من اصلاحاته فأدخل عليها تجميلات جمة ووسع ميناءها

أما الأقاليم فقد أنشأ فيها كثيراً من الترع والمصارف والسكك الحديدية والتلغرافات وغير ذلك

كذا عنى اسماعيل فى نفس الوقت بانشاء المدارس ونشر التعليم والثقافة، وارسال البعثات العلمية ألى أوربا ، وبذل الرعاية لطلاب العلم وتشجيعهم على التحصيل والدرس

✡ ✡ ✡



سقـــايين

وفى أثناء ذلك كان اسماعيل يستميل الباب العالى بمختلف الوسائل، ليحصل منه على امتيازات تخرج بها مصر من شكل ولاية عثمانية الى شكل دولة مستقلة استقلالا داخليا . وقـــد روى لى فى هذا الصدد زميلى فى المعية محمود شكرى (باشا) ان الخديوى فى احدى زياراته للاستانة سنة ١٨٧٣ ، دعا السلطان عبد العزيز الى مأدبة أعدها له فى كشك أنشأه بحديقة قصر ميركون ، على ضفة البوسفور ، لاستقبال جلالته . وجمله بجميع أنواع الرياش الفاخرة. واستعملت فى هـــذه المأدبة أوان من الذهب . وعقب المأدبة بعث اسماعيل بهذه الأوانى الذهبيـة هدية الى جلالته ، وقد كان اشتراها خصيصا لهـذا الغرض .

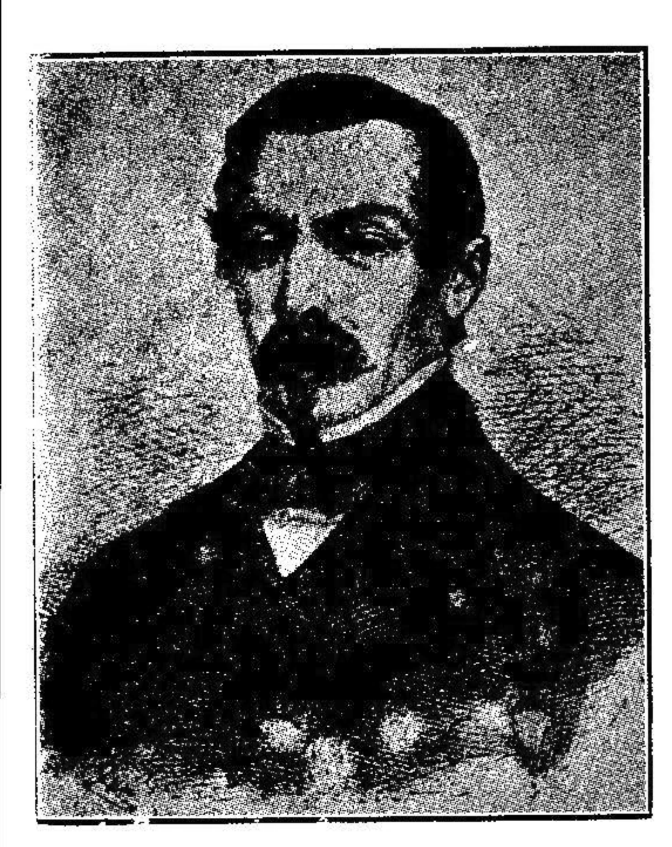
وكذلك استمال الخديوى كثيرا من أكابر رجال الدولة العليـة ليستعين بهم على تحقيق غايته . وقد كان يطمح فى الواقع الى الاستقلال بمصر استقلالا تاما . ويتحين الفرص الملائمة لتحقيق هذا المشروع .

واتجهت همة اسماعيل الى الفتح أيضا ففتح كثيراً من البلاد السودانية ، وبلغت فتوحاته البحيرات الكبرى وبحر الغزال ووصلت الى وادى الكونغو . ثم فكر فى فتح الحبشة ، التى كانت يومئذ كالجزيرة فى وسط أملاكه ، فغزاها وكان يؤمل متى افتتحها أن يعلن نفسه أمبراطورا لأفريقيا . ولكن ذهبت آماله باندحار الجنود المصرية فى هذه المحاولة الجريئة .

اسراف اسماعيل وبذخه ولكن من سوء الطالع أن اسماعيل كان آية فى الاسراف ، يبذر المال بغير حساب ويعشق البذخ الطائل . فلقد تأنق ما شاء فى زينة الملك وزخرفه ، وأكثر من تشييد القصور وملأها باسراب الجوارى الحسان وأجزل العطايا والهبات . فكان ثالث ثلاثة من ذوى الفخامة والعظمة والأبهة والاسراف : هم السلطان عبد العزيز، والامبراطور نابليون الثالث ، واسماعيل خديوى مصر



السلطان عبد العزيز



نابليون الثالث

ومن غريب الاتفاق أن هؤلاء العظماء الثلاثة عاشوا فى عصر واحد تقريباً ، فكان بين سيرهم كثير من وجوه الشبه ، وكانت بينهم رابطة صداقة ومودة . ثم حكم ثلاثتهم مدداً متقاربة وختم كل عهده فى ظروف متشابهة

ومما يروى — صورة واضحة لاسراف اسماعيل وبذخه — أمثلة سمعتها فيما بعد من بارو باشا الفرنسى ، وكان رئيس الديوان الافرنجى فى عهد اسماعيل . من ذلك

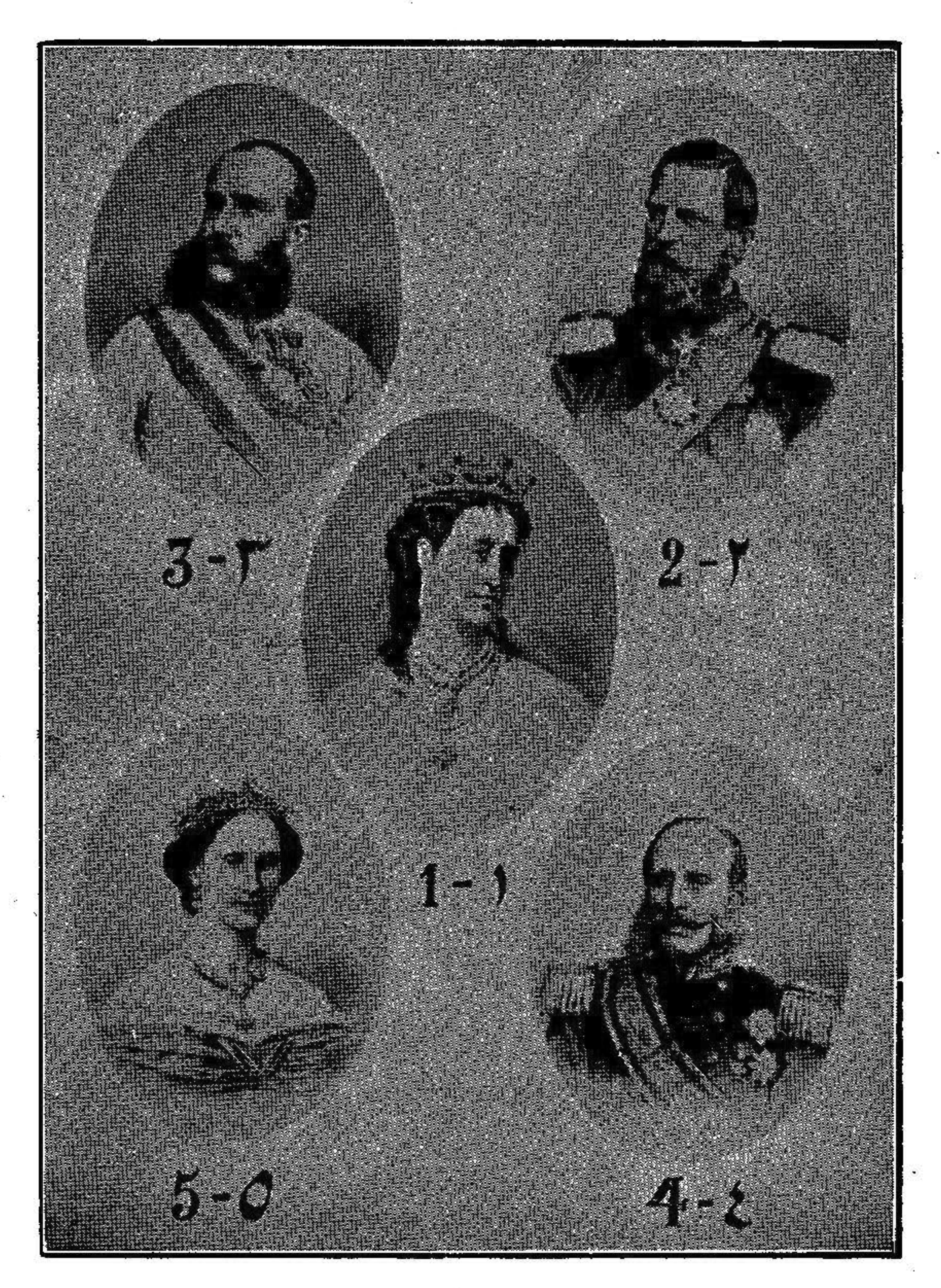
ان اسماعيل فى أحدى زياراته لباريس سمع بجمال قصر لأحد اغنياء الباريسيين ، فأظهر لمحدثه رغبة فى مشاهدة هذا القصر هياماً بالفن الجميل . فلما علم صاحبه بذلك بادر بدعوة الخديوى إلى مأدبة أقامها له ، وكانت له فتاة جميلة أعجب بها سموه . وبعد الفراغ من تناول الطعام سأل اسماعيل صاحب القصر عما إذا كان يرغب فى بيعه وعن الثمن الذى يريده فيه . ولم يكن الرجل يود التفريط فى قصره . ففكر فى الخلاص من هذا المأزق بان طلب لقصره ثمناً باهظاً قدره خمسة ملايين فرنك — راجياً ان يحول ذلك دون رغبة الخديوى فى الشراء — ولكن خاب ظنه ، فقد قبل الثمن وأمر باستدعاء كاتب العدل (المخصص لكتابة العقود) ليكتب العقد . فسأل عن اسم البائع وقيده . ثم سأل عن اسم المشترى وعندئذ أشار اسماعيل بأصبعه إلى ابنة رب الدار قائلا : « مدموازيل . . . » وبذا عاد لابنة صاحبه وغرم اسماعيل ثمنه الباهظ ! !

وحادث آخر ، هو ان بارو باشا أبلغ اسماعيل ان زوجة أحد الموظفين الفرنسيين بالمالية المصرية قد توفى زوجها وليس له معاش ولا مكافأة كبيرة . وأن حالتها ستسوء من بعده . فأظهر عطفه عليها ، وامر بأن يكتب للمالية بصرف مبلغ الف جنيه لها . ولكنه عاد بعد بقليل فاستدعى بارو باشا وقاده إلى خزانته الخاصة قائلا : « ان الصراف قد احضر لى الآن نقوداً ذهبية ولا ضرورة للكتابة إلى المالية اختصاراً للوقت » ثم أخذ يقبض بيده بضع قبضات متعاقبة من الذهب ويضعها فى منديل بارو باشا . وهو يحسب أنها اكثر مما امر به ظاناً ان ملء قبضته يساوى مبلغاً كبيراً

وذكر لى بارو باشا أيضاً ان الخديوى اسماعيل كان لايقدر للمال قيمة ، ولا يدرك له وزنا . وانه كان حين يقترض بفائدة ما ، لايناقش فى مقدار هذه الفائدة ، ولا يقدر نسبتها بالقياس إلى المبلغ المقترض . وانه بالجملة كان لا يعرف حساب الاموال

وأكبر مثل ضربه اسماعيل فى هذا الباب يوم تحققت له أمنيته بفتح قناة السويس ، فقد كانت وبقيت هذه الاحتفالات مضرب المثل فى الأبهة المقطوعة النظير مما ، بعث الامبراطورة أوجينى أن تبرق إلى زوجها الامبراطور يوم حفلة الافتتاح تقول له : « وصلت بور سعيد بصحة جيدة . الاستقبال فخم . لم أر فى حياتى ما يماثل ذلك »

وقد أنفق اسماعيل على هذه الاحتفالات مليوناً واربعمائة الف جنيه مصرى



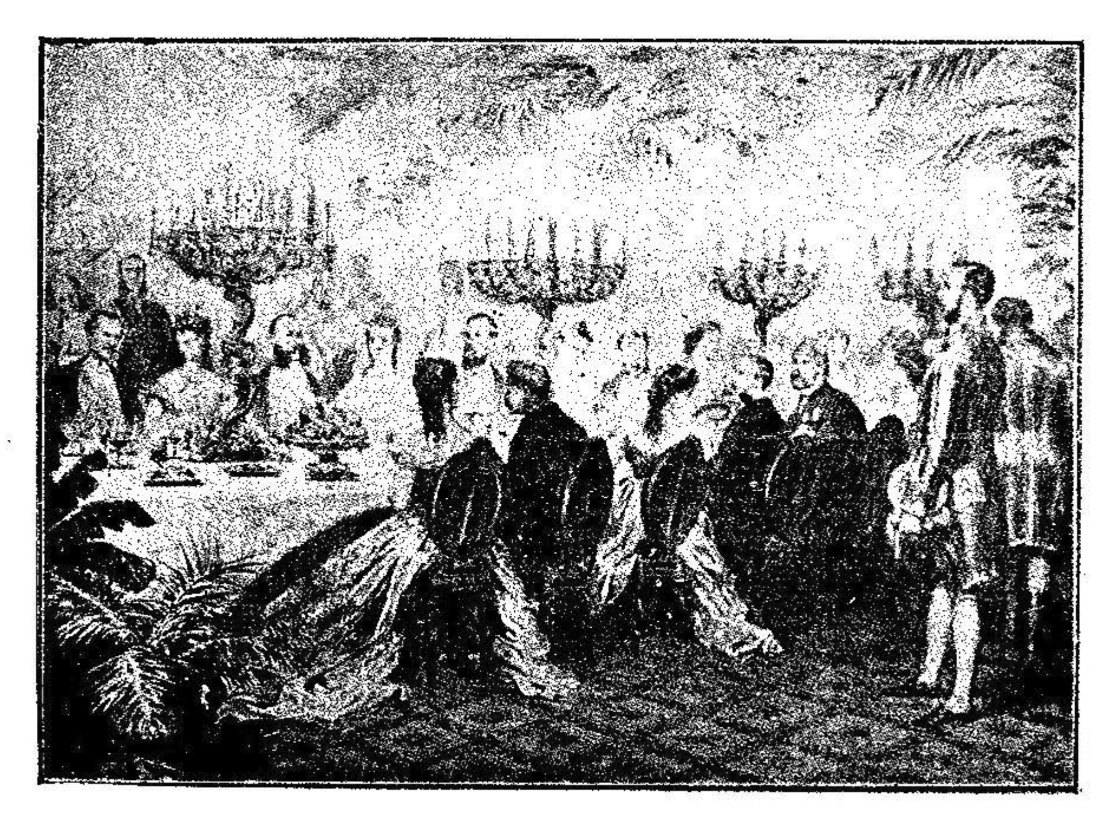
الملوك الأربعة

(١) أوجيني امبراطورة فرنسا (٢) ولى عهد بروسيا

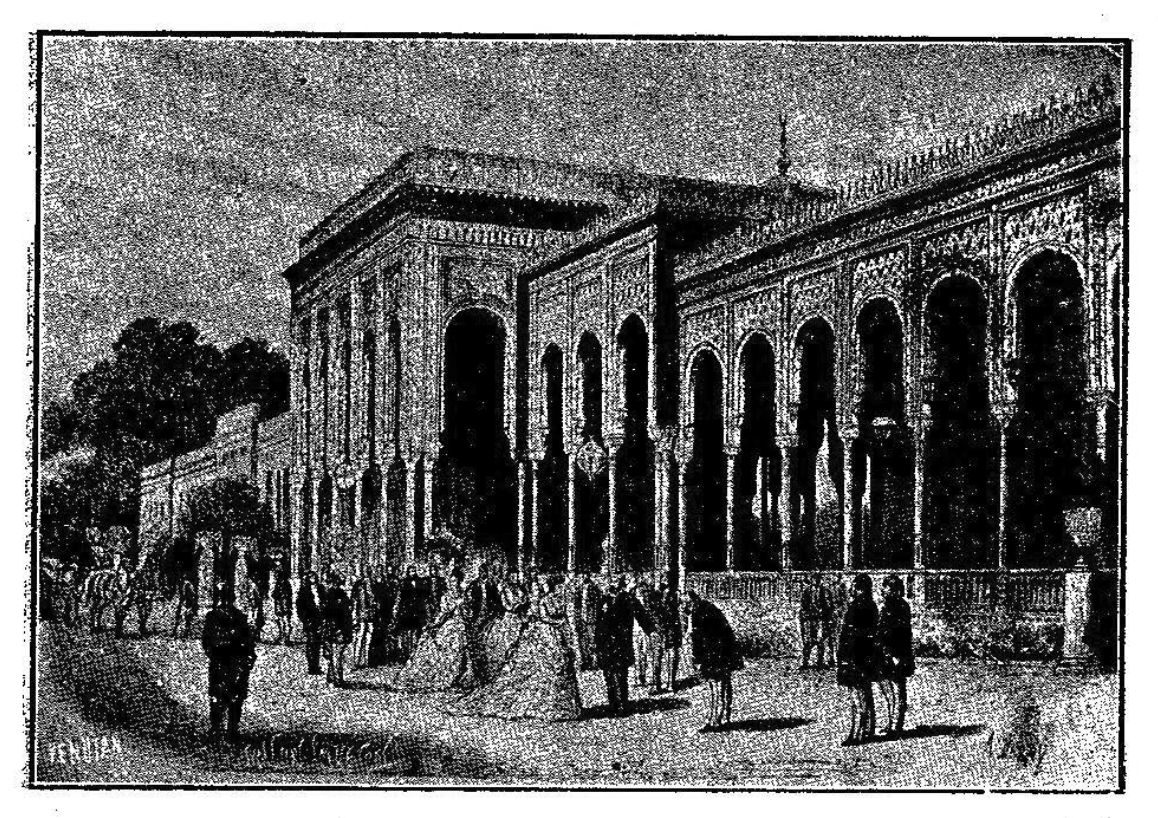
(٣) فرنسوا جوزيف امبراطور النمسا وملك المجر

(٤) ولى عهد هولاندا (٥) الأميرة عقيلته

نزهـــة المـــلوك



المأدبة الرسميـــة



الامبراطورة أوجينى تتنزه مع اسماعيل في حديقة قصر الجزيرة أمام السلاملك
أثناء ضيافة اسماعيل لها

اصلاحاته الادارية مع ذلك لم يتوان اسماعيل فى الاقـــدام على كثير من الاصلاحات الداخلية ، فى الادارة ونظام الحكم

وكان من اهم اصلاحاته انشاء مجالس شورية فى المديريات، وانشاء مجلس النواب .

وقد صدر الامر بانشاء هذا المجلس فى أوائل سنة ١٨٦٦ وجعل من اختصـاصاته ان تكون قراراته نافذة فى الشئون المالية والادارية ، واستشارية فى الأمور التشريعية .

وفى ٢٥ نوفمبر من السنة نفسها، افتتح هـذا المجلس وألقى فيه خطاباً موجزاً بين فيه الغرض من انشائه ودعوته

وكان قصد اسماعيل الحقيقى من تأليف هذا المجلس التظاهر بأنه حاكم دستورى يشرك الامة معه فى المسئولية، حتى لايبدو بمظهر المتصرف المطلق . وأذكر بهذه المناسبة حكاية رواها لى والدى عن هـذا المجلس : ذلك انه لمـا اجتمع ودعا السكرتير الاعضاء ان يقسموا انفسهم ثلاثة أقسام:—

الاول — حزب اليمين ويؤيد الحكومة .

والثانى — حزب اليسار وهو المعارض لها .

والثالث — حزب الوسط وهو المعتدل .

لما اقترح السكرتير ذلك لم يكن من اعضاء المجلس الا ان انحازوا جميعا إلى جهة اليمين قائلين : وكيف نكون ضد الحكومة ؟!

الازمة المالية : كانت هذه الأغراض المتعددة ، والمشروعات الضخمة ، تستدعى طائل النفقات . هذا إلى ما قدمنا من اسراف سموه وبذخه مما أدى إلى كثرة الاقتراض بالربا الفاحش ، ووقوع البلاد فى لجة عميقة من الديون والتعهدات . ومما أدى أيضاً إلى إثقال كاهل الأهالى بمختلف الضرائب والجبايات ، لتسديد فوائد الديون المتراكمة ، وللانفاق على المشروعات الكثيرة وسد النفقات الخاصة .

وكان من جراء ذلك أن أصيبت البلاد بالضيق المالى ، وعصفت بها الفاقة ، وبلغ البؤس بالفلاحين أن كانوا ينزلون عن أطيانهم فراراً من الضرائب المتوالية ، رسمية وغير رسمية ، وأن يتظاهر بعضهم بالفقر المدقع فيرتدى الثياب الخلقة ويسير على قدميه بدل الركوب ، خيفة ان يلمح فيه الغنى زبانية الضرائب فيثقلون كاهله بما لا يستطيع

وأقفرت خزائن الحكومة ، فحرم الموظفون من قبض مرتباتهم ثمانية عشر شهراً ، واضطر بعضهم إلى اخذ مقابل مرتباتهم أشياء عينية ـ كما قدمنا ـ واحتاطهم العسر والفاقة

ولما تفاقمت الأزمة وسدت جميع السبل فى وجه اسماعيل ، اضطر إلى بيع أسهم قناة السويس للحكومة الانجليزية لسد بعض هذه المطالب والديون

ومع ذلك فان الأزمة ظلت مستحكمة ، وأخذت تزداد شدة ، لان المحاكم المختلطة التى انشئت بالاتفاق مع الدول سنة ١٨٧٥ ، للفصل فى المنازعات بين المصريين والأجانب ، وبين الأجانب وبعضهم ، جعلت تصدر احكامها تباعا بالحجز على أملاك اسماعيل الخاصة

لجنة التحقيق لما بلغ الضيق باسماعيل ذروته لجأ إلى فرنسا وانجلترا ، مبيناً لهما أن سوء الحالة المالية يرجع إلى فداحة الفوائد ، وانه لا بد من تخفيضها وتنظيم دفع الاقساط حتى تنتظم المالية المصرية وتصبح قادرة على السداد .

وقداستقر رأى الدولتين والدول الأخرى ذوات المصالح الخاصة فى ذلك على تكوين لجنة عرفت بلجنة التحقيق، لفحص المالية المصرية. فقبل اسماعيل الرأى على كره منه، وصدر مرسوم بتأليفها فى ٣٠ مارس سنة ١٨٧٨ ونشر فى ٤ ابريل منها. وألفت اللجنة برياسة المسيو دى لسبس [١]. ووكالة كل من :السر ريفرس ولسن ورياض باشا وعضوية مندوبى صندوق الدين الاربعة [٢]. وقد أظهر رياض باشا شجاعة عظيمة فى اجراء التحقيق بطلب سجلات المالية والمناقشة فيها. وكان للجنة حق استجواب أى موظف، فاستدعى شريف باشا رئيس النظار للحضور ولكنه رفض بأبائه المعروف واستقال. وبعد انتهاء اللجنة من عملها قدمت تقريرها الذى اشارت فيه بوجوب اجراء عدة إصلاحات خاصة بنظام المالية وبالموظفين. وكذلك اشارت بان يتنازل الخديوى واعضاء أسرته عن املاكهم الخصوصية، فتم ذلك.

مصرع اسماعيل باشا المفتش: لما رفض شريف باشا الحضور امام لجنة التحقيق، طلبت اللجنة حضور اسماعيل باشا صديق المعروف (بالمفتش) ناظر المالية لاستجوابه.

وكان أخاً للخديوى من الرضاعة، وكان صديقه وصفيه وموضع سره. وكان يعلم ان كل ما يهم أميره هو الحصول على المال من اى الطرق، فكان لا يبخل عليه بما يطلب ولا يصده عن تحقيق هذه الغاية امر، ولا يقف عند اى الوسائل، مشروعة وغير مشروعة.

فلما وقعت الكارثة واستدعى اسماعيل المفتش امام لجنة التحقيق لاستجوابه، خاف الخديوى، ان يذيع نجيه القديم ما بينهما من الاسرار، فكان مصرعه على النحو الآتى:

فى ذات يوم اصطحب الخديوى اسماعيل باشا المفتش معه إلى قصر الجزيرة بحجة التريض. وعند الدخول ذهب سموه إلى جناح الحريم ودخل المفتش إلى حجرة وجد

---

(١) وقد تنحى عن الرياسة بعد ذلك فخلفه السير ريفرس ولسن

(٢) أنشأ اسماعيل صندوق الدين عند استحكام الأزمة المالية تطمينا للدائنين من الأجانب على أموالهم بأن خصص لهم قسم من الايرادات لا تمسه يد الحكومة

بها الامير حسين كامل . وكان هناك مركب بخارى ينتظر تحت السراى بأمر من الخديوى. فسرعان ما انزل المفتش اليه وقد ادرك فى هذه اللحظة ما سيحل به.

وفى نفس الوقت كان المجلس المخصوص يجتمع ويقرر نفى اسماعيل صديق باشا إلى دنقله ، بتهمة تدبيره مؤامرة على الخديوى . فأقلع به المركب البخارى فى الحال إلى مقره . وكثرت الأشاعات بعد ذلك : فمن قائل إن اسماعيل المفتش قتل فى الطريق فلم يصل إلى دنقله ، ومن قائل انه اغتيل فى القاهرة قبل مبارحتها . ولكن الذى علمته انه وصل إلى دنقله وقتل خنقاً بيد اسحق بك الذى كان يرافقه. وقد تمكن اسماعيل المفتش من جز اصبع قاتله .

FENDIAN

اسماعيل باشا صديق (المفتش)

وعلى كل حال فان الجميع فى مصر كانوا يشعرون شعور الارتياح لذهاب هذا الكابوس الثقيل (١)

النظارة المختلطة ولما انتهت لجنة التحقيق من عملها شكلت نظارة مختلطة برياسة نوبار باشا لتنفيذ الاصلاحات التى اوصت بها تلك اللجنة .

وكان من اعضائها السير ريفرس ولسن، ناظراً للمالية ، والموسيو دوبلنيير ، ناظراً للاشغال. فبدأت عملها بعقد قرض قدره ثمانية ملايين ونصف مليون من الجنيهات مع

(١) لما راى رياض باشا ما حل باسماعيل صديق خاف ان يغدر به جزاء له على جراته فى التحقيق فسافر الى اوربا عقب انتهاء اللجنة من عملها



نوبار باشا

بيت روتشيلد بضمانة الاملاك التى تنازل الامراء عنها. (١) وقد تقرر ان يستخدم هذا القرض لتسديد كثير من الديون التى صدرت بها احكام المحاكم المختلطة وغيرها من الديون السائرة، وفى صرف المتأخر من المرتبات المتراكمة للموظفين. أما دين الدائرة السنية وقدره ٨٫٨١٥٫٠٠٠ جنيه فقد جعل ديناً قائماً بذاته يوفّى من دخل تلك الدائرة (٢)

وقد سارت تلك النظارة فى مباشرة عملها ولكن بطريقة لم تسفر عما كان ينتظر من صفاء الجو وتحسن الأحوال. بل جاء الامر على النقيض، وقوبلت أعمالها بالسخط والنفور من جميع طبقات الأمة، وعلى الأخص من اسماعيل، اذ استأثرت بالسلطة. فكانت تعقد جلساتها مرتين فى الاسبوع، وتقرر ما تراه من الأوامر، ثم تعرضها على الخديوى لمجرد التوقيع عليها. فعز ذلك على أمير مكث طوال السنين مطلق الحكم نافذ الكلمة، وكبر على نفسه أن ينزل فجأة عن تلك المنزلة العالية الى منزلة المنفذ لقرارات نظارته، دون أن يكون له رأى فيها أو يد فى ادارة الاعمال. فلم يكن غريباً أن يشتد سخطه عليها.

(١) يعرف هذا بقرض الدومين

(٢) أملاك الدائرة السنية كانت لاسماعيل باشا وتنازل عنها

كذا أساءت النظارة تنفيذ ما أشارت به لجنة التحقيق من انتقاء الموظفين القادرين ، فانتخبتهم جميعاً من الأجانب دون أهل البلاد ، وقررت لهم مرتبات فادحة ترتب عليها ان فصل كثير من الموظفين المصريين ، وخصوصاً الأصاغر منهم ، لكى يستطيع الموظفون الأجانب ان يحصلوا على مرتباتهم الضخمة . ومن ذلك انه لما احتاج الامر إلى انشاء قلم المساحة لتحديد الممتلكات الخديوية ، عولت النظارة على استدعاء ثلاثين ضابطاً انجليزياً من الهند لمباشرة هذا العمل ، فى حين أنها تجد كفايتها فى الضباط الوطنيين

مظاهرة الضباط : وقد تناولت أساليب الأقتصاد والتوفير نفقات الجيش والمدارس الحربية ، فاحيل كثيرون من الضباط الى الاستيداع . فساءت حالتهم فوق ما كانت عليه من قبل ، بسبب التأخر فى صرف مرتباتهم ثمانية عشر شهرا . واشتد سخطهم حينما علموا باستدعاء الضباط الانجليز من الهند ، وجاهروا باستيائهم حتى اضطر راتب باشا ناظر الجهادية الى مكاشفة زملائه النظار بما يخشى من العواقب فلم يستمعوا له .

فما لبث أولئك الضباط الناقمون أن اجتمعوا ، وبعد أن تداولوا فيما يجب عمله ، وأقسموا الأيمان الوثيقة ، ساروا إلى نظارة المالية يتقدمهم البكباشى لطيف بك سليم وسعيد بك نصر المدرس بالمدارس الحربية ، وهما زعيما الحركة .

ولما علم نوبار باشا والمستر ويلسن بالأمر لم يعيراه اهتماماً . فتربص الضباط لهما عند خروجهما من النظارة وقابلوهما بالأهانة والاعتداء .

وقد كنت يومئذ موظفاً بالمجلس الخصوصى بالداخلية ،(١) فشاهدت هذه المظاهرة منذ البداية ورأيت ضابطاً يدعى حسين رشدى يهجم على عربة السير ويلسن ويعتدى عليه بعد أن أنزل السائق عن كرسيه ، ثم أخذ العربة ورجع بها إلى نظارة المالية .

ولما علم اسماعيل بالخبر تحرك بركابه فى الحال إلى تلك النظارة ، ودخل بنفسه بين أولئك الضباط ، وخطب فيهم مهدئاً خواطرهم ، وطلب اليهم الأنصراف فرفضوا حتى تجاب مطالبهم ، وأولها صرف مرتباتهم المتأخرة . وخلع أحدهم جوربه البالى ولوح به للخديوى قائلا : « أهذا جورب يلبسه ضابط ؟! . »

وكان الخديوى قد أمر بحضور قوة من عساكر الحرس فحضرت ، وأطلقت النار

(١) وكان يقيم اذ ذاك فى المحل الذى تشتغله رياسة الوزارة الآن



لطيف بك سليم وبجانبه ولده فؤاد

فى الهواء ارهاباً للمتظاهرين ، فأجاب بعض الضباط باطلاق مسدساتهم ، وانتهت الحادثة بأصابة تسعة بجروح ، والقى القبض على زعماء الحركة .

وقد ذهب الناس مذاهب شتى فى تأويل هذه المظاهرة ، لأن لطيف بك سليم — أحد منظميها وقوادها — كان يمت بصلة القرابة الى شاهين باشا ، وهو من أحب المقربين لدى

اسماعيل . ولوحظ أيضاً أن مدة سجن الضباط المعتقلين لم تتجاوز بضعة أيام فضلا عن أن الزعيمين قد أفرج عنهما فى اليوم التالى .

وأما عن أهانة السير ويلسن فقد ذهب السردار حسن باشا نجل اسماعيل بالملابس الرسمية إلى القنصلية العامة الانجليزية ، وبحضور موظفى القنصلية وكثير من أعيان الانجليز ، اعتذر باسم الخديوى .



البرنس حسن باشا

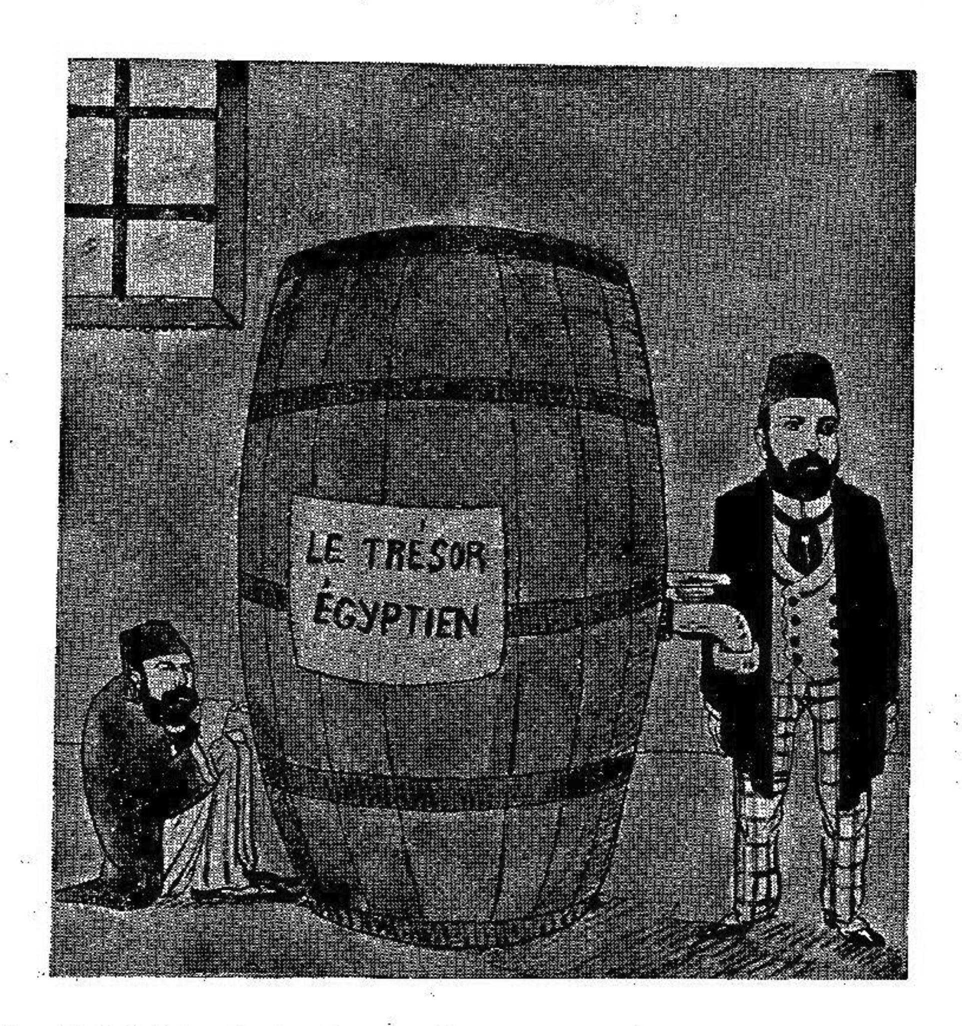
وكانت هذه أول مظاهرة نظمها رجال العسكرية منذ عهد محمد على باشا .

اقالة النظارة المختلطة

وعلى أثر هذه الحادثة أعلن الخديوى ان هيمنة الناظرين الأوربيين على الأمور مما يثقل على نفوس الأهالى ويثير ثائرتهم ، وان نوبار باشا مكروه لديهم أشد الكراهة ، وأن تسكين الخواطر يقتضى أن يتسلم هو بنفسه رياسة مجلس النظار ، أو يعهد بها إلى من يختاره من أهل ثقته .

عندئذ بادرت انجلترا وفرنسا بارسال مذكرة إلى الخديوى ملؤها التهديد والوعيد . وقد جاء فى ختامها : « ان الدولتين تلفتان نظر الخديوى إلى ما يتعرض له من العواقب الوخيمة اذا لم يعمل على تنفيذ الاتفاقات الأخيرة تنفيذاً دقيقاً ويمتنع عن عرقلة سير الحكومة الحاضرة » . فأجاب اسماعيل على ذلك بأنه يكتفى بتعيين ولى عهده توفيق باشا رئيساً للنظار ، وللناظرين الأوربيين أن يستعملا حقهما فى معارضة كل قرار لا ينال رضاهما .

ونذكر بهذه المناسبة أنه عند تأليف النظارة الجديدة تحت رياسة توفيق باشا ، نشرت احدى الصحف الفرنسية المحلية رسما هزلياً صورت فيه المالية المصرية فى شكل برميل ضخم ذى صنبور (حنفية) وقف أمامه توفيق باشا حارساً ، وصورت خلف البرميل الخديوى اسماعيل قاعداً القرفصاء يمتص الخزانة كما ترى فى الصورة .



ترمز الجريدة بذلك الى أن مظهر تغيير الوزارة لم يؤثر فى حقيقة الواقع شيئا ، وأن الأجانب لا يثقون بحراسة توفيق باشا للخزانة العامة .

تقرير لجنة التحقيق . وبعد ذلك بقليل قدم السير ويلسن مشروعه المالى المعروف بقانون التصفية ، وصف فيه حالة المالية المصرية بانها تشرف على الأفلاس . ومما جاء فيه قوله : « ان أسلوب الحكم المتبع فى مصر يستحيل معه التوفيق إلى حل المشاكل الحاضرة ، والمحافظة على الحقوق ؛ وليس أمام الحكومة المصرية ، للخروج من مأزقها ، الا اتخاذ طرق العدل والانصاف فى مختلف المطالب على قدر الاستطاعة » .

ومن ثم فقد طلب فى مشروعه تخفيض الفوائد، والغاء الأحكام التى أصدرتها المحاكم المختلطة منذ سنة ١٨٧٦ لمصلحة الدائنين . وهو يشير بذلك إلى وجوب التضحية من جانب الخديوى أولا ، ومن جانب أصحاب الديون ثانياً لملافاة الخطب الداهم . وقد أرفق بمشروعه صورة دكريتو لتوقيع اسماعيل عليها .

وكان المنتظر أن يثور الخديوى لما آلت اليه الأحوال .إذ غدا يرى نفسه اداة مسخرة بين ناظرين من نظاره ، ولذا لم يدخر وسعا للخلاص من سيطرتهما وللرجوع إلى سابق عزه وسلطانه .

فلما أعيته الحيل عمد إلى الانقلاب الفجائى فاصدر أمره فى ٦ ابريل سنة ١٨٧٩ بعزل هذه النظارة المختلطة (١) . وجهر بالطعن فى أعمال الناظرين الاجنبيين — ويلسن ودو بلنير — وسلط عليهما حرب الأقلام ، واتهمهما علناً فى تصريح له نشرته جريدة المونيتور اجبشيان « Moniteur Egyptien » وهى صحيفة رسمية للحكومة ، بأنهما وضعا للحكم نظاما يخالف ميول المسلمين . كما أنه أنكر عليهما فكرة تخفيض الفوائد وتأجيل دفع الكوبون ، استمالة منه لأصحاب الديون، وتنفيراً للناس من أعمال الناظرين الأجنبيين .

اللائحة الوطنية . ثم شرع أعوان الخديوى — وعلى رأسهم السيد على البكرى وشاهين باشا — فى وضع مشروع للميزانية المصرية يصادق عليه كبراء البلاد وأعيانها — وهو المعروف باسم « اللائحة الوطنية » — فوقع عليه ستة وستون من عظماء الباشوات، وتسعون من اكابر العلماء والأعيان . وقد تعهد الموقعون فى تلك اللائحة مع الخديوى بتسديد أقساط الديون بتمامها وقت استحقاقها بضمانة أموالهم وأملاكهم . وأصدر اسماعيل باشا أمره ، أجابة لرغبتهم ، بتأليف نظارة وطنية تحت رياسة شريف باشا، وجعلها مسئولة امام مجلس النواب ، بعد توسيع اختصاصاته ليكون مماثلا فى سلطته للمجالس النيابية فى أوربا .

وقد كانت هذه ضربة لسياسة انجلترا وفرنسا فى مصر . هذا الى أن المانيا أخذت تظهر فى الميدان وتطالب الحكومة المصرية ،فى مذكرة شديدة اللهجة ، بان تدفع للدائنين الألمان جميع مطالبهم دون تخفيض أو إرجاء .

---

(١) شعر نوبار باشا عندئذ بسخط الخديوى عليه فبادر بالسفر الى أوربا



شاهين باشا

وكان نوبار باشا يتحدث منذ خروجه من مصر ، عن استبداد اسماعيل وعدم صلاحيته للحكم ، مع من يلقاه من السياسيين الفرنسيين والانجليز . وكان ممثل فرنسا فى هذا الوقت بمصر « مسيو تريكو » فاتفق مع ممثل انجلترا على العمل لخلع اسماعيل .

وكان كثيرون من طلاب الحرية ومعهم السيد جمال الدين الأفغانى يترددون على شريف باشا ويظهرون له الرغبة فى تولية توفيق ولى العهد ؛ والعمل لاقناع اسماعيل بالتنازل لمصلحة مصر . وذهب هـذا الوفد إلى وكيل دولة فرنسا وأفهمه ان فى مصر حزبا وطنياً حراً يطلب الاصلاح ويرى انه لا يتم إلا على يد ولى العهد توفيق (١)

(١) والحقيقة أنه لم يكن ثمت حزب بالمعنى المتعارف وانما كانت هناك جماعة تنزع الى تحرير البلاد

وهنا رأت انجلترا وفرنسا أن الفرصة قد سنحت لتضربا الضربة الأخيرة لاستعادة نفوذهما ؛ فاستقر عزمهما على الخلاص من اسماعيل وذلك بعزله وإبعاده .

عزل اسماعيل . وكان امامهما لذلك طريقان : الأول أن تقوما بتنفيذ الامر مباشرة ، والثانى أن توسطا فيه الباب العالى . فآثرتا الرأى الأخير ، وتمكنتا بمساعدة المانيا من الحصول على رضاء السلطان عن عزل اسماعيل ، وتولية ابنه توفيق مكانه .

وأخيراً تقدم ممثل انجلترا يطلب الى اسماعيل ان ينزل عن الأريكة الخديوية . فاضطرب فى أمره ، ولم يجد طريقا يسلكه سوى أن يبذل المساعى لدى السلطان ليحول دون تنفيذ هذا العزم ؛ واستخدم فى أقناعه بابا من أبواب التعريض ؛ فبين له أنه اذا وافق الدول الأوربية على ما تطلبه من عزله، بسبب تقصيره فى تسديد الديون ، فلا يبعد أن تجعل ذلك سابقة ، فتعامل الدولة العثمانية بتلك المعاملة فى المستقبل ، للتشابه بين حالة المالية العثمانية وحالة المالية المصرية .

فلما لم تجد هذه الحيلة مع السلطان ، ولم تنجح لديه بقية المساعى ، عزم اسماعيل على اعلان استقلاله ، ومقاومة الدول الأوربية بالقوة ، اتباعا لمشورة صديقه شاهين باشا. ولكن شريف باشا حال دون تنفيذ هذه الخطة ، بما كان له من اصالة الرأى ، ونصح لأسماعيل ، فى الحاح ، بأن ينزل عن العرش لأبنه توفيق خشية التبديل فى فرمان التولية ، اذ يحرم ابنه من حقه وتعود الحال إلى النظام القديم ، الذى كان يقضى بان يرث الحكم الأرشد فالأرشد من ذرية محمد على ، وبذلك ينتهى الامر إلى تولية حليم باشا بن محمد على باشا الذى كان يزاحمه على الولاية منذ عهد بعيد .

وعلى هذا عاود اسماعيل الكرة ، وحاول أن يستميل انجلترا وفرنسا للاتفاق على تنفيذ ما جاء باللائحة الوطنية لضمان مصلحة الدائنين . ولكن الامر كان قد بت فيه ، وصدر امر السلطان بتعيين توفيق باشا خلفا له . فلم يبق امام اسماعيل الا الأذعان ومقابلة القضاء بالتسليم والرضاء

* * *

أشهد اسماعيل — فى الحفلة التى تلى فيها فرمان توليته — ممثلى الدول أنه قنالى « Canaliste » ووعد بشق قناة السويس . وفعلا وفى بوعده

ثم وعد كذلك بسداد الدين الذى ورثه عن سلفه وقدّره هو باحد عشر مليونا من الجنيهات[1] ولكن اسماعيل ترك الحكم وقد بلغ الدين واحد وتسعين مليونا .

وكأنه غابت عنه قواعد الاقتصاد التي وردت فى الآية القرآنية : « **ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا** » فأحدث ثقل هذا الدين أول ثغرة تدخل منها الأجانب فى أخص شئوننا الداخلية وغلوا القسط الذى كنا نتمتع به من الحرية والاستقلال الذاتى، وكان من نتائج ذلك ما نعانيه حتى اليوم



(١) والحقيقة التى علمتها من أبي — وكان فى معية سعيد — انه بعد تصفية التركة لم يكن الدين ليزيد عن أربعة ملايين ونصف مليون من الجنيهات فقط.